حرف النون

فيا ليته لما رماه رماني!

يرثي مالك بن زهير العبسي، وكان صديقاً له:

[الطويل]

ألا! يـا غُـرَابَ الـبَـيـنِ فـي الـطّـيَـرَانِ
أعِـرْنـي جَـنَـاحـاً، قَـدْ عَـدِمـتُ بَـنَـانـي

تُـرَى هـل عَـلـمـتَ الـيـوْمَ مـقـتـلَ مـالـكٍ
وَمَـصْـرَعَـهُ فـي ذِلّـةٍ وَهَـوَانِ؟

فَـإنْ كـان حَـقّـاً، فَـالـنّـجُـومُ لـفَـقـدِهِ
تَـغـيـبُ وَيَـهْـوِي بَـعْـدَهُ الـقَـمَـرَانِ

لـقـد كـانَ يـوْمـاً أسْـوَدَ الـلّـيْـلِ عـابِـسـاً
يـخـافُ بَـلاهُ طَـارِقُ الـحَـدَثَـانِ[1]

فَـلِـلَّـهِ عَـيْـنَـا مَـنْ رَأى مِـثـلَ مـالـكٍ
عَـقـيـرَةَ قَـوْمٍ أنْ جَـرَى فَـرَسَـانِ[2]

(١) الأبيات الأربعة الأولى مشكوك بنسبتها له.

(٢) العقيرة: الرجل الشريف يقتل. فرسان: أي فرسا رهان داحس والغبراء. شهد مالك بن زهير ذلك السباق المشؤوم ونتائجه؛ إنه فرد قومه ومن نتائج ذلك السباق مقتل ذلك السيد.

فَلَيْتَهُمَا لَمْ يجريَا نِصْفَ غَلْوَةٍ
وَلَيْتَهُمَا لَمْ يُرْسَلا لِرهَانِ[١]
وَلَيْتَهُمَا مَاتَا جَمِيعاً بِبَلْدَةٍ
وَأَخْطَاهُمَا قَيْسٌ فَلا يُرَيَانِ[٢]
لَقَدْ جَلَبَا حَيْناً وَحَرْباً عَظِيمَةً
تُبِيدُ سَرَاةَ القَوْمِ مِنْ غَطَفَانِ[٣]
وَقَدْ جَلَبَا حَيْناً لِمَصْرَعِ مالِكٍ
وَكانَ كَرِيماً ماجِداً لِهِجَانِ[٤]
وَكَانَ لدى الهَيْجَاءِ يحمي ذِمَارَها
وَيَطْعَنُ عِنْدَ الكَرّ كلّ طِعانِ[٥]

(١) يتمنّى الشاعر لو لم يحصل هذا الرهان ولم ينطلق الفرسان في مرحلة شوط السباق.
(٢) ويتمنّى لو أن الفرسين هلكا قبل حصول المأساة ولم يرهما قيس بن زهير بن جذيمة العبسي.
(٣) سراة القوم: سادتهم. غطفان الجدّ الأعلى لعبس وذبيان وفزارة كان من نتائج ذلك السباق ويلات وحروب دامت أربعين عاماً، قتل الكثير من بني عبس وبني ذبيان.
(٤) يُشكّ في هذا البيت. الحين: الأجل، يصف الشاعر مالكاً بصفات الفتى الفارس العربي الكريم الشجاع، ولقد كان لمهلكه أثر مُحزِن في أبناء عشيرته.
(٥) الهيجاء: الحرب. الذمار: الحمى والحدود. الكرّ: الهجوم على الأعداء، وثمة رواية أخرى لعجز البيت «ويضرب عند الكرّ كلّ بنان». يصف الشاعر مالكاً في الحرب، فمن صفاته أنه قادر على ردّ الأعداء عن الديار وحمايتها بقوّته؛ فطعناته لا تخيب، ولطالما انتصر في ميادين القتال على الأعداء.

بِـهِ كـنـتُ أسْـطُـو حـيـنَـمـا جَـدّتِ الـعـدا
غـدَاةَ الـلّـقَـا نـحْـوِي بـكـلّ يَـمَـانـي[١]
فَـقَـدْ هَـدّ ركْـنـي فَـقْـدُهُ وَمُـصَـابُـهُ
وَخَـلّـى فُـؤادِي دائـمَ الـخَـفَـقَـانِ[٢]
فَـوَا أسَـفَـا كَـيْـفَ انْـثَـنـى عـن جَـوَادِهِ!!
وَمَـا كـانَ سَـيْـفـي عِـنْـدَهُ وَسِـنَـانـي[٣]
رَمَـاهُ بـسَـهْـمِ الـمَـوْتِ رَامٍ مُـصَـمِّـمٌ
فَـيَـا لَـيْـتَـهُ لـمّـا رَمَـاهُ رَمـانـي[٤]
فَـسَـوْفَ تَـرَى إنْ كـنـتُ بـعـدَك بـاقـيـاً
وَأمـكَـنَـنـي دَهْـرٌ وَطُـولُ زَمَـانِ[٥]
وَأُقْـسِـمُ حَـقّـاً لَـوْ بَـقـيـتَ لـنَـظْـرَةٍ
لَـقَـرّتْ بـهَـا عَـيْـنَـاكَ حـيـنَ تَـرَانـي[٦]

---

(١) سائر الأبيات الباقية التي تبتدئ بهذا البيت مشكوك فيها. أسطو: أسلب الأعداء. يذكر الشاعر أنّه كان يقتدي بمالك. فهو يجد فيه القادر على ردّ الأعداء إلى جانبه في الحروب، وهو يستعين بالسيوف اليمانية في القتال.

(٢) يألَم الشاعر لفقد مالك، فقد أضعفه وجعل قلبه مملوءاً غضباً لا يستكين ولا يهدأ.

(٣) ومن دواعي أسف الشاعر واستغرابه أن بطلاً كهذا يهوي صريعاً من جواده، ولم يكن بجانبه من يُحامي عنه ويفديه بنفسه ومعه سلاحه.

(٤) ولقد أصاب منه رام مقتلاً، فكانت رميته رمية بارع ذي تصميم وعزيمة، ويتمنّى الشاعر لو التّقى هذا الرامي ليفعل به ما فعله بمالك.

(٥)، (٦) ويعد الشاعر مالكاً أنه سيثأر له، إذا أمهله الدهر ويقسم أنه لو بقي مالك على قيد الحياة سيريه ما تقرّ به عيناه.